

مهر جان الموت

! * الخائب نعيه * !

* * *

كانت الساعة التاسعة من الليل . وكان المطر الذي هطل طول النهار السابق قد كف . لكن السماء ما زالت ملتحفة بغيوم كثيفة سوداء تخترقها بين المدة والاخرى ، هنا وهناك ، اشعة نجم ضئيلة ، ثم يخفي النجم وتعود الغيوم فيلتصق بعضها ببعض سابحة على مهلها في الفضاء الواسع كامواج اوقيانوس لا بدء له ولا نهاية . لو دخل القرية غريب في مثل تلك الساعة لتعذر عليه ان يجد فيها اثراً للحياة على الاطلاق ولظن بيوتها الراقدة على ظهر الارض تحت جناح الليل مدافن او صخوراً قدفتها الجبال المجاورة من اجوافها . لا نباح كلب ولا عواء ذئب ولا مواء هرة ولا صوت بشري - سكينه عميقة خرساء لا تحركها سوى هبات نسبات لطيفة من ريح خزيان تمر باشجار التوت فتنفذ عن اوراقها دموع السحاب المستترة بين ضلوعها فتتصدر هذه القطرات من ورقة الى ورقة حتى يخيل للسامع ان السماء عادت ففتحت انايبها .

في مثل تلك الساعة كان شبح يسير بين اشجار التوت المحيطة بدار غنية ذات ثلاث طبقات منفردة على طرف القرية ، جدرانها بيضاء وسطحها



لمنران خليل جبران

* الجامعة المستنصرية *

مغطى بالاجر الاحمر . تلك دار موسى السحتوتي - اغنى رجل في كل القرية . وُلد فقيراً فجمع بالتقير والاحتياال الوقاً من المال واقتنى املاكاً واسعة ، يتمتع بها الان وحده ، فاعطته نفوذاً في القرية كنفوذ سلطان مطلق . الشبح كان يسير موجهاً خطاه نحو باب هذه الدار الشرقي . يشي ولا يسمع لخطاه وقع على الارض الرطبة . لكنه ، لشدة الظلام ، كان يعثر بجذوع الشجر واغصانها فيقع ويقوم متمماً ويكسر ما تصل اليه يداه من الاغصان التي كانت تشبك تارة بشعر رأسه فتطرحه الى الوراى واخرى تضربه على وجهه فتكاد تدميه او تعدمه بصره .

وصل الشبح اخيراً الى اسفل الدرج الشرقي فتسلقه الى ان وصل الى باب الطبقة الثانية ، حيث كان رب البيت ساكناً . شرفات الدار كانت كلها مقفلة ولا اثر فيها للنور . وقف الشبح قليلاً ليستريح من عناء سيره ثم اخذ مطرقة على الباب بهيأة يد قابضة على تفاحة وطرق مرة وعاد يستريح . صوت طرقه حرك السكينة الميتة حواليه فاعتزته قشعيرة . لكنه تغلب على خوفه واذ لم يسمع جواباً طرق ثانية وثالثة بعنف اكثر من الاول لكن الباب الكبير امامه لم يتحرك . ولما كاد ان يعتربه اليأس اخذ المطرقة وبدأ يضرب على الباب ، كحداد على سندانه ، الى ان طرق اذنيه وقع خطوات على بلاط الدار داخلاً ثم صوت سعال متقطع

- مين ؟ قح - قح - قح ...

فاجاب الشبح بصوت ضعيف فيه خوف واشمئزاز وكبرياء ووجع

- هذا انا ... انا - سليمة . - فانتقطع السعال داخلاً وجاء بعده
سوءال جديد
- أيا سليمة ؟

-- سليمة - ألم تعد تعرف سليمة ؟ - سليمة نجار ...

وللحال قلقل المفتاح الحديدي في القفل وانفتح الباب فخرجت منه رزمة اشعة نحيلة من شمعة كان يحملها صاحب البيت في يده انارت بعض اغصان التوت الملاصقة للدرج . مرّت هبة ريح خفيفة فألتوى نور الشمعة يمينا ويساراً حتى كاد ان ينطفئ ، لو لم يتدارك موسى الامر ويغلق الباب بسرعة آخذاً بيد زائرته وجاذباً اياها الى الداخل

- اهلاً وسهلاً . اهلاً وسهلاً بزين العابدين . ايقظتني من حلم لطيف فكانت يقظتي اذ من حلمي . فكري كان يدلي انك ستعودين وتندمين على ما فعلت وتقبلين بما عرضته عليك . ويسرني ان فكري لم يخدعني وان عقلك قد عاد الى رأسك . هه - هه - هه . اتن النساء - اطواركن غريبة عجيبة . تتقلبن في النهار التصير الف مرة . ولكنكن ، في اكثر الاحيان ، ترجعن الى السراط المستقيم . هه - هه - هه .

سليمة بقيت جامدة وراء الباب كأن رجليها التصقتا بالارض وكأنها ندمت على مجيئها واخذت تبحث في عقلها عن حيلة تتخلص بها من المأزق الذي رمت فيه نفسها . تلك لم تكن اول مرة وقفت فيها وجهاً لوجه مع موسى السحتوتي وحدثته . لكنها كانت اول مرة رآته فيها على تلك الحالة .

منظر محدثها ارسل قشعيرة في كل جسمها وكلماته كانت تكتنف قلبها كطوق من الجليد فيبرد الدم في عروقها وتكاد تنسى الغاية التي جاءت لاجلها . رأت امامها شبه رجل في قميص نوم فيها كل ألوان قوس القزح . اطراف قميصه تصل الى تحت ركبتيه بقيراطين وما بقي من رجليه العاريتين الخاليتين من اثر الشعر فكان مكشوفاً . قميصه كانت مفتوحة كذلك على صدره من عنقه حتى ما فوق سرتة بقليل ، تبان من تحتها اضلعه المقوسة كأنها هيكل عظام مغطى بجلد رقيق مدبوغ . ذقنه مزدوج واسع يكاد يبلغ حجمه حجم كل وجه الناشف الشاحب . شفته السفلى قد تدلت الى نصف ذقنه . وشفته العليا لم تستر كل اسنانه الصفراء . على طرفيها عدة شعرات خشنة سوداء بعضها قد اتجه الى فوق والبعض التوى الى اسفل . عيناه صغيرتان مدورتان ، اخلط فيهما لون الرماد والزفت والزعفران ، تدوران بين اجفانها المتجمدة كنتقطتين من الزئبق . وفي هذه الدقيقة التي تتكلم عنها كانتا تحاولان ان تنظرا الى الزائرة بلطف وابتسام لكنهما بدل اللطف كانتا تنظران بجشع شهواني كما ينظر الهر الى الفارة وقد وثق ان لا مناص لفريسته من بين اظافره . فوق تقطي الزئبق امتد خطان عينيتهما الطبيعية ان يكونا حاجبين لكنهما لم تتم مشروعها فلم تزينهما بشعر على الاطلاق . اما جبهته ، التي كانت في صغره اضيق من طريق نملة فقد اتصلت اليوم بقسم كبير من جمجمته التي عرّتها السنون من كل زينة الشباب والرجولية . رأسه المسطح من الورا والامام لا شعر عليه سوى قليل فوق

اذنيه ورقبته . وهذه الصورة البشرية كلها ولم يكن طولها يزيد على الذراع والنصف ، كانت واقفة على قبقاب خشبي عالٍ تنظر على ضوء الشمعة في يدها الى وجه زائرتها الواقفة امامها كأن رجليها قد سمرت الى الارض بعد ان نظر موسى السحتوتي ملياً الى وجه سليمة لم يتمالك من ان يهتف بصوت غير صوته العادي

— مالي ارى الورد في وجه حبيبتى زين العابدين قد ذبل ؟ هه — هه — هه . هل طراً على زين العابدين مرض في هذه الايام ؟ — السحتوتي تعجب حقيقة لما رأى اصفرار وجه سليمة وكان يعهد ذلك الوجه نضراً كورد ايار . اما الان فقد زاد اصفراره تأثيراً وعظماً ما رآه من ذبول عينيها السوداوين وعمق الام الروح التي ارتسمت فيهما كلجة بحر لا قياس له . كل خط من خطوط وجهها الجميل كان مرآة تنعكس فيها آلام نفسها ، والمنديل الذي عصبت به رأسها مع الفسطان الاسود البالي الذي سترت به جسمها النحيل لم يكونا سوى شاهدين خارجيين على اوجاع قلبها الداخلية . شعرها الاسود وعصابتها السوداء وثوبها الاسود البالي وضوء الشمعة الضئيل في يد السحتوتي جعلت سليمة تبان كراهبة منقطعة عن العالم او كشبح زار هذه الارض وهو ليس من سكانها .

لكن هذا المنظر لم يكن ليؤثر بقلب موسى السحتوتي الذي اخذ بيد سليمة بشدة كأنه اراد ان يجرها وراه قسراً . — تعالي معي يا حسناء الى غرفة النوم فالسرير مُعد لاجلك من زمان .

أما قلت لك اني احبك كما احب اموالي وارزاقى ؟ تعالي يا حسناء .
تعالي . هه . هه . هه .

سليمة جذبت يدها من يده بلطف لكن صدرها المرتفع والمنخفض بسرعة
كان يعبر بوضاحة عن العاصفة التي كانت تجيش في صدرها . مع ذلك
تمكنت من ان تجيب بصوت منخفض

— ألا ترى اني حافية الرجلين ؟ اخاف ان اوسخ ارض دارك الجميلة . —
أمال موسى الشمعة في يده الى اسفل ونظر الى رجل سليمة فرآها عاريتين
مغطاتين بالاوحال . — وبعد سكوت قصير عادت سليمة الى الكلام وصوتها
مضطرب أكثر من الاول

— موسى افندي ! موسى افندي ! اخي يموت وانت قادر ان تنشله
من بين مخالب الموت . اخي يموت جوعاً — ورغيف خبز يرده الى الحياة .
وعندك كثير من الخبز — فهلاً تجود علي برغيف ؟ — لماذا تطلب لرغيفك
ثمناً ليس في طاقتي دفعه ؟ لما كان لم يزل عندنا قليل من الارزاق كنا نبيعك
اياه وتقتات بثمرتها . والان ارزاقنا كلها اصبحت في يدك . — البيت الذي
نسكنه الان مرهون عندك . لم يبقَ عندنا شيء للبيع . وما بقي لا يشتريه
احد . البازحة بعث حذائي — وهذا آخر ما كان عندي . الحكومة اخذت
البقرة الاخيرة التي كان حليبها يرد عنا بعض الجوع . ابي مات — وانت
تعرف كيف مات . مات جوعاً لانه اقطع عن الاكل كي لا يموت
اولاده امام عينيه . كان في وسعك ان تنجيه فلم تفعل . طلبت مني ان

ايحك نفسي لقاء قليل من الخبز لابي — فلم ارض لان ابي لو درى بذلك
لفضل الموت على عار ابنته . اخذه الموت قبل ان يأخذني . امي مفلوجة
لا تقدر الا على البكاء . اختي الصغيرة تقضي نهارها في جمع الاعشاب في
البراري . واخي بطرس (هنا اجهشت سليمة بالبكاء) اخي بطرس
— انت تعرفه — فرخ لم يكتس بعد بالريش . لما مات ابي لم يوصني سوى
به . قال لي . « ديري بالك لخيك يا بنتي ما ليش عندك وصية الا هو »
ابي كان لا يحلف الا باسمه . بطرس كان عنده الكل بالكل . اوصاني
به — وماذا اقدر ان افعل ؟ . . . قل لي — ماذا اقدر ان افعل ؟ من اين
آتية بقوت الحياة ؟ انا كبيرة اقدر ان احتمل الجوع يوماً ويومين وثلاثة
— فكيف يحتمل الجوع يوماً جسده الصغير ؟ الجوع يحصد الناس من
حوالي شيوخاً واطفالاً ، رجالاً ونساء ، مات من هم اقدر مني واغنى مني .
فماذا اقدر ان افعل انا — ماذا تقدر ان تفعل ابنة ضعيفة مثلي ؟ أمس عثرت
على غراب ميت قرب الساقية . رفعته بيدي فكذت اقع منشفة علي من
رائحته المنتنة . طرحته بين الادغال وذهبت الى البيت فوجدت امي تبكي
واختي تبكي واخي ملقى على الارض فظننته ميتاً . رفعته بين ذراعي
وضمته الى صدري ففتح عينيه الذابلتين ونظر الي فكذت اري في تلك
النظرة روحه التي تفارق جسده . ثم فتح شفثيه الصغيرتين وقد فارقتهما آخر
قطرة من الدم وقال . « اختي بدى آكل » وظل يردد « اختي
بدى آكل » حتى اقطع صوته من الضعف وعاد الى الغيوبة . كلماته

اخترقت قلبي كخناجر . وضعتني من بين يديَّ على الارض وركضت كالمجنونة الى حيث تركت الغراب الميت . اخذت الغراب وطبخته واطعمت اخي من لحمه . عادت روحه اليه وابتسم قليلاً ثم اطبق عينيه وانغمس في غيبوبة جديدة . تركته في غيبوته وخرجت اسأل عن رغيف خبز فلم اجد . من عنده كسرة خبز يرضن بها على سواه ويحفظها لنفسه او لعياله . ومن ليس عنده يقات بالاعشاب ويموت . انت لا عيال عندك يا موسى افندي - انت تقول انك تقدر ان تطعم هذه القرية كلها لسنة من مالِك وغللال ارزاقك . فهلاً تخلص حياة اخي لمجد الله ؟ ربما قدرت ان اكافئك في المستقبل وان لم اقدر فالله يكافئك عني . . . لماذا تطلب مني ثمناً انت تعرف اني لا اقدر على دفعه ؟ انت تعلم اني مخطوبة لشاب احبه اكثر من حياتي واعرف انه يحبني . انت تعرف اني انتظر رجوعه من بيروت من ساعة الى ساعة وانه لو كان هنا لما اضطررت ان اطرح نفسي على معروفك - فلماذا تطلب مني ان افسخ خطبتي واقترن بك ؟ انت رجل غني وجيه ، وانا ابنة فقيرة حقيرة . عمرك ٤٠ سنة وعصري ١٨ سنة فقط . حتى لو قبلت ان اقترن بك تكون حياتنا مرة شقية . وانت تعرف ذلك - فهل تطلب الشقاء لي ولنفسك ؟ انا لا احبك ولا اقدر ان احبك ، وانت تعرف ذلك ايضاً - فلماذا تطلب المستحيل ؟ - مع ذلك فهل هذا الوقت وقت زواج وطلاق ؟ هذا وقت موت . وقت حرب الموت والحياة . اخي يموت ، وان مات اخي فسأ موت انا بعده في الساعة نفسها - فهلاً تخلصني وتخلص اخي وانت

قادر ان تفعل ذلك بدون خسارة وتضحية ؟ دعني انا وشأني . دعني امت . دعني اضحل - لكن حلفتك بربك ، ان كنت تعبد رباً ، وباعز ما عندك ان كان عندك عزيز ، ان تنجي اخي من الموت جوعاً انت انسان وفيك قلب بشري - فهلاً تحرك قلبك الرأفة بالبائسين والتعساء ؟ - ارحم بربك يا موسى افندي ! مالك ولي انا ؟ ماذا تطلب في وفي جسمي ؟ ألا تراني واقفة امامك كشبح من القبور - فماذا تطلب من هذا الجسم النحيل عندك ذهبك وفضتك واملاكك تغنيك عن ملذات العالم كلها - فماذا تطلب من هذا الوجه الشاحب وهذا الصدر الذي يملؤه الهم والحزن ؟ لماذا تطلب مني ان اقضي معك ليلة في فراشك - لماذا تحب ان تسلبني عفاي وانت تعرف اني احفظه لسواك ؟ لماذا تطلب مني ان اباع شرفي - لا بل ان اباع نفسي - برغيف من الخبز ؟ لو كانت حياة اخي في موتي لما تأخرت لحظة عن اقبال الموت - لكنني اكره ان اموت كما تشاءني انت ان اموت - مغطاة بالعار والفضيحة . لاني لو سلمت نفسي لما قدرت ان اعيش نهاراً واحداً بعد ذلك - فعلى من اترك اخي واختي وامي ؟ وماذا يكون نفعك من ذلك او نفع اخي او نفعي ؟ - انا فتاة ضعيفة يا موسى افندي وانت رجل قوي - فهلاً تخجل ان تستعمل كل قوتك المادية والجسدية ضد ابنة يتيمة ، فقيرة ، ضعيفة مثلي ! . . . انت تعلم اني احب اخي اكثر من نفسي وان اخي بين ذراعي الموت في هذه الدقيقة واني لا اقدر ان احصل على قوت لخلاصه الا من عندك واني مستعدة ان اضحي حياتي

لاجل اخي - فهل تطاوعك نفسك ان تطلب مني شيئاً اذا دفعته فانت تعرف اني اودع معه الحياة . هلاًّ تخلص غريباً الا اذا كتب لك صكاً بحياته ؟ بالله ارحم . بالله رق . بالله اشفق يا موسى افندي ! الليل بارد مظلم . روح اخي الصغيرة تحارب الموت وهي على آخر رمق . اختي الصغيرة تبكي وتطلب اكلاً . امي المفلوجة تولول - فاعطني ما اسد به رفقهم ولك الاجر عند الله . خذني عبدة لك الى الابد - انما اعدل عما طلبت مني سابقاً . اعطني رغيفاً او اثنين ودعني ارجع من حيث اتيت . . .

كانت الكلمات تخرج من صدر سليمة متسابقة يعثر بعضها باذيال بعض حتى خنقتها العبرات فانقطع صوتها فجأة كأن لسانها التصق بحنكها . ثم اخذت تكفكف دموعها بيديها اذ لم يكن معها منديل . وموسى السحتوتي كان واقفاً يبرق بعينه ويحك جنبه ضاحكاً كأن سليمة كانت تمثل امامه دوراً سخرياً .

- هه - هه - هه - ألي من ايده الله يزيده ! لو قبلت بشروطي من الاول لما مات ابوك . واذا قبلت الان فلا يموت اخوك ولا تموتين انت . وشروطي بسيطة للغاية . اما ان تتركني ابن العطار وتصيري زوجتي الشرعية او ان تنامي عندي ليلة لقاء كل رغيف تأخذه مني . هل تطلين قلباً ارق من قلبي بعد ؟ هه - هه - هه . اذا مات اخوك او امك او اختك من الجوع فلا تلومي سوى نفسك . حياتهم في يدك . تصرفي بها كيف شئت . انا احب من كل قلبي ان اساعدك واساعد اهلك اكراماً لمجد الله - جل اسمه .

وانت لا تحبين - فهل اكون انا الملوم ؟ هه - هه - هه .

سليمة لم تنبس بينت شفة . جمدت عيناها وتشجعت اعصابها ووقفت كأنها جثة انفصلت عنها روحها . هي قد سمعت تلك الشروط من زمان . وقد فكرت فيها طويلاً حتى كادت تضيع سلطتها على افكارها . وتخيل لها مراراً انها قرية من الجنون . تارة تحتم على نفسها بالقبول ، فلا يطول ان تتمرد نفسها الطاهرة عليها وتسمع قلبها يردد . « كلا . كلا والف كلا ! » وطوراً تقرر في عقلها ان تنفل في وجه السحتوتي وتعايق الموت مع اهلها بشجاعة وشرف ، فيرن صوت اخيها الصغير في اذنيها . « اخي . . . بدي آكل . . . » وتعود اعصابها قترتخي وتعود اوصال قلبها تتقطع بين العزم والتردد . والان ، وهي واقفة امام السحتوتي ، تجددت نار هذه الحرب الروحية في داخلها ، وانقسمت نفسها الى مهاجم ومدافع لا يكاد واحدهما يستظهر على الاخر حتى ينقلب تيار المعركة فيتخذ المدافع خطة الهجوم والمهاجم خطة الدفاع . مرّ امامها صباها ، لما كانت تسرح وتمرح برغد وصفاء ، خالية من هموم الحياة واتعابها . رأت نفسها على مقعد المدرسة بين اترابها وخلانها فاتصبت للحال امام عينيها صورة فتى في اول العمر ، جبلته الطبيعة من طين الجمال والقوة واللطف . تذكرت ذاك الاحد من آذار ، لما خرجت برققته وزمرة من اقرانها الى البرية لجمع الازهار . حين انفردت به بين الادغال على حافة النهر ، فعثرا هناك على بقعة يكسوها البنفسج . وحين انظرها كلاهما باقل من طرفة عين على البنفسج واخذاً يقطعانه ، وحين